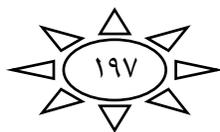


الفصل الثاني

مختارات نظرية



برع الكتاب الأندلسيون فى فن الكتابة ، وتنوع إنتاجهم فيها ما بين رسائل ديوانية أو إخوانية أو وصفية أو مقامات أو غير ذلك، وكان لكل لون من هذه الألوان ما يميزه عن غيره ، ويستقل به استقلالاً يجسد له لوناً من التفرد بين غيره من الألوان ، كما اشتهر فى هذا الشأن كتاب أندلسيون ، ذاع صيتهم ، وعاد نجمهم وهم كثيرون أمثال :

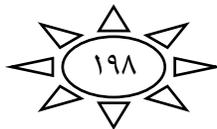
أحمد بن عبد ربه ، على بن يوسف ، أبو عبدالله بن صاحب الصلاة ، الفتح بن خاقان ، ابن أبى الخصال ، أبو عمرو بن الهوزنى ، أبو بكر بن صقلاب وغيرهم كثيرين .

وسوف نورد عليك الآن - عزيزى الطالب - مجموعة متميزة من النثر الأندلسى والذى به تكتمل حلقة الدراسة ما بين شعرية ونثرية ، وقد حاولت - قدر الإمكان - أن يكون اختياري لهذه النماذج النثرية فيه لون من الجدة والطرافة ، من حيث اختيار القطع النثرية ذاتها ، ومن حيث الأطياف والإشارات التى تتناول النص بالتوضيح والشرح والتعليق العام.

ولعل اختيار هذه النصوص بذاتها كان له غاية تعليمية واضحة الدلالة يلمحها الطالب الأريب ويغفل عنها الخامل الكسول .

أولاً : رسالة ديوانية لأبى حفص بن برد :
صاحب الرسالة :

صاحب الرسالة و كاتبها هو الكاتب الأندلسى المعروف :



أبو حفص أحمد بن برد الأكبر، ولآه المنصور بن أبي عامر ديوان الإنشاء،
وكتبه من بعده لابنيه المظفر والناصر، ثم كتبه لسليمان المستعين الأموى
وللأمراء الحموديين .

ولعل فى ترجمة ابن بسام الشنترينى له فى ذخيرته ما يدل على سبقه
وفضله ، فقد أشاد ببيانه وفصاحته حين قال عنه :
" أسمع الصمّ بياناً ، واستنزل العُصم إبداعاً واستحساناً " .

وقد ذكر من رسائله النثرية طائفة كبيرة تدل على رسوخ قدمه فى العلم
والكتابة وقد توفى ابن برد الأكبر فى عام ٤١٤هـ .

موضوع الرسالة :

الرسالة التى سنتكلم عنها هى إحدى الرسائل الديوانية أو السياسية كما
يحلو للبعض أن يطلق عليها ، وهى فى العادة تتناول أمور الديوان ، وتبحث الأمور
العامّة فى الدولة وتناقشها .

وقد ظهر هذا اللون من الرسائل فى الأندلس فى عصر الإمارة ، عندما
استقرت الأحوال العامّة فى الأندلس ولاسيما الحالة السياسية والاجتماعية .

ومما يلاحظ على هذا النوع من الرسائل : أنه محدود ، ولا يظهر إلاّ
فى حدود ضيقة جداً ، وذلك حين تكون هناك مناسبة تدعو إليه ، أو أمر سياسى
عارض يدفع الحاكم إلى إصدار مثل هذا النوع من الرسائل .



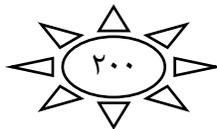
أما عن الرسالة التي اخترناها للدراسة هنا : فقد كتبها أبو حفص
بن برد حين كان وزيراً في بلاد الأندلس . إلي هُرَيْل ابن رُزَيْن ، وذلك حين حاول أن
يستقل بحكم بعض الجهات في بلاد الأندلس .

وهنا يحاول ابن برد أن يعيده إلي حظيرة الطاعة ويقنعه بخطأ المسلك الذي
سلكه في أسلوب راق يتأرجح بين الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى كما هو شأن
هذا النوع من الرسائل .

نص الرسالة :

بدأ ابن برد رسالته بالحمد والثناء على الله ، ثم قال :

" أما بعد ، آتاك الله رشداً ، وأجزل من توفيقه قسطك ، فإن الله تعالى
خلق الخلق غنياً عنهم ، وأنسأهم بمهل غير مُهْمِل ، بل ليحصى آثارهم ، وليبلو
أخبارهم ، وجعلهم أصنافاً متباينين ، وأطواراً مختلفين ، فمنهم المختص بالطاعة
ومنهم المبتلى بالمعصية وبين الفريقين أقوام خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فعسى
الله أن يتوب عليهم ، ولو شاء الله لكان الناس أمةً واحدة ، ولا يزالون مختلفين
ولذلك خلقهم ، والسعيد منْ خاف ربه وعرف ذنبه ، وبادر بالتوبة قبل فوتها ،
واستعطى الرحمة قبل منعها . وإن كنت تركت قصدك ، وخالفت رشداً ونكبت
عن سبيل سلفك ، فلم يوحشك ممن شردت عليه مكره نالك به ، ولم يؤنسك مما
طشت إليه أملٌ لم تطمح فيه إلا لديه بل كنت آملاً من المخاوف بعيداً عن المكار
قريب المكاتب ، رفيع الدرجة ، مُصدراً في أهل النصيحة والثقة ، خلا أنه حدث



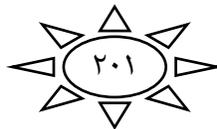
بينك وبين الحاجب ما لم يزل يحدث بين القواد والعمال على قديم الزمان مما لم يبلغ أن يُخرج ذا الرأي الأصيل عن طبقتة ، والله علم أن أمير المؤمنين لم يبخسك فى تلك الهبات خطأً ، ولا أولاك إعراضاً ، ولقد اعتنى بمصلحتك ، وعزم على إزاحة علتك حتى يتهياً من ذلك ما يفى بأملك لو انتظرتة ، واستقام فيه ما يزيد على طلبك لو صبرت إليه ، ولك فى القدر المقدر فَسَحَه ، وفى القضاء المحتوم مندوحة ، ولن تضيق بك السبل عند أمير المؤمنين وأنت بين طاعة سالفة واستقامة موروثة ، وبين إنابة منتظرة وتوبة مستقبلة ، فبإحدى الحالتين تُحط الذنوب الكبيرة ، ويُغطى على العيوب الكثيرة ، فالآن عصمك الله - واللبب رخي ، والمركب وطى ، وبابك إلي رضا أمير المؤمنين مفتوح ، وسبيلك إلي حُسن رأيه سها ، ولا يذهب بك اللجاج إلي عار الدنيا ونار الآخرة ، إياك ومصارع الناكثين ، وحذار موارط الغادرين ."

مضمون الرسالة :

تكاد تستولى على هذه الرسالة فكرة عامة وهى دعوة الكاتب لهزيل بن رزين إلي العودة إلي نطاق الطاعة وعدم الخروج على أمر السلطان . وقد طاف الكاتب فى طيَّات هذه الفكرة فى عدد من الأفكار الجزئية التى تكون رسالته وتوضح حدودها ومعالمها ومجالها الفكرى .

وإليك الآن عزيزى القارئ أهم أفكار هذه الرسالة :

١. الدعاء لهزيل بن رزين وتذكيره بنعمة الطاعة وشؤم المعصية.
٢. بيان الخطأ الذى وقع فيه هزيل بطريقة تجنح إلي اللطف والتماس الأعذار.



٣. بيان وجهة نظر الحاكم فى تصرفه ضد هذيل وأنه لم يقصد بخسه أو إهانتته

٤. مناشدة هذيل بالرجوع إلى الطاعة والولاء حتى لا يتفاقم الأمر بيته وبين السلطان .

الخصائص الفنية للرسالة :

يمكن أن نستخلص بعض الخصائص الفنية لهذه الرسالة الديوانية وذلك يتبلور فى النقاط التالية :

أولاً : سهولة الألفاظ ووضوحها ، ودالاتها المباشرة على المعنى المراد دون عنق أو مشقة .

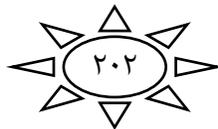
ثانياً : تنوع الأساليب وثرائها وملاءمتها للمقام ، فهى بين خبر وإنشاء وترغيب وترهيب .

ثالثاً : روعة الإيقاع الموسيقى وذلك يظهر من خلال السجع الذى يهيمن على الرسالة من أولها إلى آخرها .

رابعاً : الاقتباس من القرآن الكريم

ثانياً: من علامات الحب لابن حزم الأندلسى

ابن حزم : هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ، من أسرة كانت تنتسب إلى جد فارسى من موالى بنى أمية ، وقيل غير ذلك ، كان ملتزماً متديناً عميق الإيمان .



وُلد عام ٢٨٤ هـ مُنْت لَيْسَم من قرى مدينة لَبْلَة غربى أشبيلية . وقد رُبِّي على أيدي الجوارى فى قصر الخليفة المؤيد الذى كان أبوه وزيراً له ، مما جعله يتعلم الكثير عن أسرار النساء ، ويستشعر عاطفة الحب مبكراً .

وكتاب طوق الحمامة تصوير قصصى وافعى صريح غير متكلف ، يتحدث فيه ابن حزم عن الحب العذرى العفيف وتجاربه فيه ، وتجاربه معاصريه ، وما له من سلطان على النفوس ، وما يثيره من آلام وشكوك ، وما له من ضحايا ، وما يحدث فيه من العذاب والخصام والصلح والتواعد على اللقاء ، ومن الهجر والخداع والغدر والسلوان ، إلي غير ذلك مما يتعثر أهل الهوى فى شباكه .^(١)

(باب علامات الحب) من كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسى

وللحب علامات يقفوها الفطن ، ويهتدى إليها الذكى . فأولها إدمان النظر والعين باب النفس الشارع ، وهى المنقبة عن سرائرها ، والمعبرة لضمائرها والمعربة عن بواطنها .

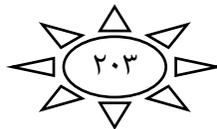
فترى الناظر لا يطرف ، يتنقل بتنقل المحبوب ، وينزوى بانزوائه ، ويميل حيث ال كالحرباء مع الشمس ، وفي ذلك أقول شعراً فيه: [الطويل]
فليس لعينى عند غيرك موقف

كأنك ما يحكون من حجر البيت

أصرفها حيث انصرفت وكيفما

تقلبت كالمنعوت فى النحو والنعت

^(١) (يراجع عصر الدول والإمارات (الأندلس) د. شوقى ضيف . ص ٤٩٤ وما بعدها دار المعارف ط ٢ .



ومنها الإقبال بالحديث ، فما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد [غير]
 (١) ذلك وإن التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه ، والإنصات لحديثه إذا حدث ،
 واستغراب كل ما يأتى به وكأنه عين المحال وخرق العادات ، وتصديقه وإن كذب ،
 وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، وإتباعه كيف سلك وأى وجه من وجوه
 القول تناول .

ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه ، والتعمد للعود بقربه ،
 وإطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه ، والاستهانة بكل خطب جليل داعٍ إلي
 مفارقتة ، والتباطؤ فى الشئ عند القيام عنه .

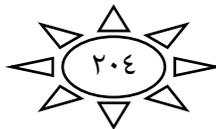
وفي ذلك أقول شعراً : [الخفيف]

وإذا قمتُ عنك لم أمش إلاّ	شئى عان ^(٢) يُقاد نحو الفناء
مفى مجيئى إليك أحتت كالبد	ر إذا كان قاطعاً للسماء
وقيامى إن قمت كالأنجم العا	لية الثابتات فى الإبطاء

ومنها بهتٌ يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه
 بغتة . ومنها اضطراب يبدوا على المحب عند رؤية من يُشبهه محبوبه ، أو عند سماع
 اسمه فجأة وفي ذلك أقول قطعة منها :

إذا ما رأيت عيناى لابس حمرة	تقطع قلبى حسرة وتفطرا
غدا لدماء الناس باللحظ سافكاً	وضرّج منها ثوبه فتعصفرا

(١) الزيادة ضرورية لاستقامة المعنى .
 (٢) العانى : الذليل ، والعانى : الأسير ، وفى الحديث : " عودوا المرضى وفكوا العانى " .



منها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك ،
كأنه هو الموهوب له والمُسْعَى في حظه ، كل ذلك ليُبدي محاسنه ويُرغّب في نفسه .
فكم بخيل جاد ، وقطوبٍ تطلّق ، وجبان تشجّ ، وغلِيظ الطبع تطرّب ، وجاهل
تأدّب وتَفِل (١) تزيّن وفقير تجمل ، وذى سنّ تفنّى ، وناسك تفنّك ، ومصون تبدّل .
وهذه العلامات قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه وتوقّد شعله واستطارة
لهبه . فأمّا إذا تمكّن وأخذ ما أخذه فحينئذ ترى الحديث سراراً ، والإعراض عن كل
ما حضر إلاّ عن المحبوب جهاراً . ولى أبيات جمعت فيها كثيراً من هذه العلامات ،
منها :

أهوى الحديث إذا ما كان يذكر لى

فيه ويعبّق لى عن عنبر أرح

إن قال لم أستمع ممن يجالسنى

إلى سوى لفظه المستطرف الغنج

ولو يكون أمير المؤمنين معى

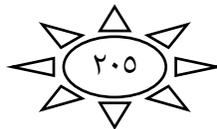
ما كنت من أجله عنه بمنعرج

فإن أقم عنه مضطراً فإنى لا

أزال مُلتفأً والمشى مشى وِجى (٢)

عيناي فيه وجسمى عنه مرتحل

(١) التّفّل : المتغير الرائحة . يقال : نفل فلان : ترك الطيب فتغيرت رائحته . (المعجم الوسيط : ص ٨٦)
(٢) وِجى يُوجى وِجى : رقت قدمه أو حافره أو خفه من كثرة المشى ، فهو وِج وِجى (المعجم الوسيط :
١٠٦٦)



مثل ارتقاب الغريق البرّ في اللجج

أغصّ بالماء إن أذكر تباعده

كمن تتأب وسط النقع والوهج

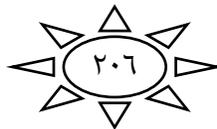
وإن تكن ممن قصد السماء أقل

نعم وإنى لأدرى موضع الدرّج

ومن علاماته وشواهد الظاهرة لكل نى بصر: الانبساط الكثير الزائد ،
والتضايق في المكان الواسع ، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما ، وكثرة الغمز
الخفى ، والميل بالإرتكاء ، وتعمد لمسّ اليد عند المحادثة ، ولس ما أمكن من الأعضاء
الظاهرة ، وشرب فضلة ما أبقي المحبوب في الإناء ، وتحرى المكان الذى يقابله فيه

ومنها علامات متضادة ، وهى على قدر الدواعى والعوارض الباعثة
والأسباب المحركة والخواطر المهيجة ، والأضداد أنداد ، والأشياء إذا أفرطت فى
غايات تضادها ووقفت فى حدود اختلافها تشابهت ، قدرة من الله عزوجل تزلّ
فيها الأوهام .

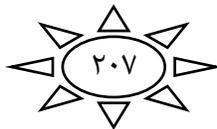
فهذا إذا أدمن حبسه فى اليد فَعَلَ فَعَلَ النار ، ونجد الفرح إذا أفرط قتل ،
والغمّ إذا أفرط قتل ، والضحك إذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين ،
وهذا فى العالم كثير فنجد المحبين إذا تكافئاً فى المحبة وتأكدت بينهما تأكيداً
شديداً أكثر بهما جدُّهما بغير معنى ، وتضادُّهما فى القول تعمداً ، وخروج
بعضهم على بعض فى كل يسير من الأمور وتتبع كل منهما لفضة تقع من صاحبه
وتأوّلها على غير معناها ، كل هذه تجربة ليبدو ما يعتقد كل واحد منهما فى



صاحبه ، والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومخارجة التشاجر سرعة الرضى : فإنك بينما ترى المحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذى لا يقدر يصلح عند الساكن النفس السالم من الأحقاد فى الزمن الطويل ، ولا يجبر عند الحقود أبداً ، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلي أجمل الصحة وأهدرت المعاتبه ، وسقط الخلاف وانصرفا فى ذلك الحين بعينه إلي المضاحكة والمداعبة هكذا فى الوقت الواحد مراراً ، وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالك شك ولا يداخلك ريب البتة ولا تئمار فى أن بينهما سر من الحب دفيناً ، واقطع فيه قطع من لا يصرفه عنه صارف . ودونها تجربة صحيحة وخبرة صادقة ، هذا لا يكون إلا عن تكلف فى المودة واتلاف صحيح ، وقد رأيت كثيراً .

ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يحب ، ويستلذ الكلام فى أخباره هجيراً^(١) ، ولا يرتاح لشيء ارتياحه لها ، ولا يُهنّيه^(٢) عن ذلك تخوف أن يظن السامع ويفهم الحاضر ، وحبك الشيء يُعمى ويُصمّ فلو أمكن المحبّ ألا يكون حديث فى مكان هو فيه إلا ذكر من يحبه لما تعدّاه ، ويعرض للصادق المودة أن يبتدىء فى الطعان وهو له مُشته ، فما هو إلا وقت ما تهتاج له من ذكر من يحب ، صار الطعام غصة فى الحلق وشجى فى المرئ ، وهكذا فى الماء وفى الحديث فإنه يفاتحك مبتهاجاً فتعرض له حطرة من خطرات الفكر فيمن يحب فتستبين الجِوالة فى منطقته والتقصير فى حديثه ، وآية ذلك الوجوم والإطراق وشدة الانفلات ، فبينما هو طلق الوجه خفيف الحركات صار

^(١) هجّيراه : دأبه وعادته .
^(٢) نهنه فلاناً عن الشيء : كفه عنه وزجره .



مُنطبقاً متثاقلاً حائر النفس جامد الحركة يبرم من الكلمة ويضجر
من السؤال.

ومن علاماته : حب الوحدة ، والأنس بالانفراد ، ونحول الجسم دون
حدٍّ يكون فيه ، ولا وجع مانع من التقلب ، والحركة والمشى دليل لا يُدب ، ومُخبر لا
يخون عن كلمة فى النفس كامنة.

والسهر من أعراض المحبين ، وقد أكثر الشعراء فى وصفه ، وحكوا أنهم رُعاة
الكواكب ، ووصفوا طول الليل وفى ذلك أقول وأذكر كتمان السر وأنه يتوسم
بالعلامات :

تعلّمت السحائب من شؤونى	فعمّت بالحياء السكّب الهئون
وهذا الليل فيك غدا رقيقى	بذلك أم على سهرى معينى
فإن لم ينقض الإظلام (١)	ما أطبقتم نوماً جفونى
إلأفليس فى النهار لنا سبيل	وسُهد زائد فى كل حين
كأن نجومه والليل يُخفى	سناها عن ملاحظة العيون
ضميرى فى وداك يا مُنايا	فليس يبين إلا بالظنون

وفى مثل ذلك قطعة منها :

أرعى النجوم كَأنى كُلفت أن

أرعى جميع ثبوتها والخلّس

فكأنها والليل نيران الجوى

قد أضرمتم فى فكرتى من حنّيس (١)

(١) بياض بالأصل.



وكأنى أمسيت حارس روضة

خضراء وشُحُّ نبتتها بالنَّرجسِ

لوعاش بطليموس أيقن أننى

أقوى الورى فى رِصدِ جِرى الكُنسِ^(٢)

وبعد هذه الإشارة إلى هذه الرسالة الإخوانية ، أترك لأعزائى الطلاب مهمة تحديد الأفكار التى احتوت عليها الرسالة ، والبحث عن كيفية وصول الكاتب إلى مراده والوسائل التى اتكأ عليها فى ذلك ، كما أترك كما أترك لأعزائى الطلاب مهمة الكشف عن الخصائص الفنية التى تميزت بها الرسالة ؛ استفادة بما قدمناه من شرح وتحليل للرسالة الديوانية السابقة.

تم بحمد الله

^١ (الحنّس : الليل الشديد الظلمة .
^٢ (الكُنس : جمع كانس ، وهو الطبقى الداخلى فى كنانة وهو مأواه بين الشجر . والجوارى الكُنس : الكواكب السيارة . (المعجم الوسيط : ص٨٠ ..)

